ميزات التجربة السرانية في الممارسات الصوفية الأنثوية

ألكسندرا ڤاليريڤنا تشيپيليڤا
ترجمة: رسلان عامر

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022
All rights reserved © 2022

ميزات التجربة السرانية في الممارسات الصوفية الأنثوية[1]

ألكسندرا ڤاليريڤنا تشيپيليڤا[2]

ترجمة: **رسلان عامر** عن الروسية

1 - العنوان الأصلي للمقال بالروسية «Особенности мистического опыта в женских суфийских практиках» ويقابله بالإنكليزية «Features of mystical experience in female Sufi practices»

2 - Aleksandra V. Chepeleva (Чепелева Александра Валерьевна) هي باحثة مشاركة في الفلسفة والعلوم الاجتماعية في جامعة سانت بطرسبرغ الحكومية الروسية من عام 2009 إلى عام 2017.

-ملاحظة من المترجم:

قد تختلف المقاربات البحثية في البلدان الأجنبية لمسائل تتعلق بتاريخنا وتراثنا وتقاليدنا بالقليل أو الكثير عما نحن معتادون على التفكير فيه بشكل عام؛ وهذا أمر طبيعي تماما ومهم؛ لأنه يرتبط بطرائق التفكير السائدة في كل مجتمع ويعكسها، وبذلك فغالبا ما يكون للنص المترجم قيمتان؛ أولاهما في ما يمكن أن يقدمه من معرفة موضوعية عن الموضوع الذي يدور حوله النص الأصلي، وثانيهما أنه يقدم لنا عينات مباشرة من نماذج التفكير الموجودة لدى الآخرين بجانبها العام، وجانبها الخاص بنا، وهذا ما يساعدنا بدورنا على فهم هذا الآخر، وفهم فهمه لنا ويجعلنا أكثر قدرة على إقامة حوار حضاري بناء معه.

ولذلك، توخت هذه الترجمة الحفاظ على لغة وروح واصطلاحات النص الأصلي إلى أقصى درجة ممكنة.

ذاك من ناحية، ومن ناحية أخرى، تجدر الإشارة إلى أن الهوامش الواردة في نهاية البحث وتحمل أرقاما رومانية، هي هوامش النص الأصلي التي وضعتها المؤلفة الروسية ألكسندرا تشيپيليڤا. أما الحواشي التي تحمل أرقاما عربية وفق الترتيب العشري، فهي من إضافتي كمترجم، وكذلك كل ما يرد داخل متن الترجمة ضمن أقواس مربعة []، والغاية من إضافته هي زيادة الإيضاح.

-ملخص

تتناول هذه المقالة السمات المميزة الملازمة للجانب النسائي من الصوفية. الصوفية هي تعاليم سرانية (mystic) إسلامية، الجانب الرئيس فيها هو أن عبادة الله، والقربى القصوى منه ممكنة من خلال الحب. تطورت الصوفية على أرضية إسلامية، واستوعبت بعض السمات المتأصلة في الإسلام، ولاسيما الجنس (الجندر)، وقد تكون رابعة الأسطورية مثالاً على امرأة صوفية مثالية، أظهرت تجربتها الصوفية، مثل تجربة العديد من النساء الأخريات، أن الجنس لا يهم في طريق الإدراك؛ وأن المرأة - بالإضافة إلى ذلك- قادرة على الوصول إلى المرتفعات الروحية على قدم المساواة مع الرجال.

تتركز حياة المرأة المسلمة على مسؤوليات المنزل والأسرة، ولفترة طويلة، كانت النساء معزولات عمليا في منازلهن، وكان عالمهن محصورا في الالتزامات العائلية والاجتماعية، في حين شارك الرجال بنشاط في الحياة العامة، وحتى التعليم كان من صلاحيات الذكور، على الرغم من حقيقة أن الإسلام يدعو بوضوح إلى تحصيل المعرفة، بغض النظر عن الانتماء الجنسي. تختلف مساواة الرجل والمرأة، التي أكد عليها العلماء المسلمون مرارا وتكرارا، اختلافًا كبيرا عن الفهم الأوروبي المعتاد عندنا للمساواة، ففصل النساء في الحياة العامة وكذلك في الحياة الثقافية والدينية لم يستطع إلا أن يؤثر على المجتمع المسلم بأسره، ووجود المرأة في الثقافة الإسلامية ليس واضحا كما الرجل، لكن تأثيرها أكثر إثارة للاهتمام للدراسة، واللآلئ النادرة في شكل شاعرات وعابدات وقديسات من المسلمات تصنعن قلادة رائعة من الثقافة الروحية "النسائية"، وهذا واضح بشكل خاص في الصوفية، حيث يحتل الجانب "النسائي" مكانا مهما في المكون الأخلاقي لهذه الحركة السرانية، وكذلك في فلسفتها الفريدة عن الحب، لكن تجربة النساء الصوفية لا تظهر على السطح، ولهذا السبب لا توجد الكثير من الدراسات الموسعة والموضوعية حول هذا الموضوع، وكقاعدة عامة، عندما يتعلق الأمر بالنساء الصوفيات، فأشهرهن، رابعة، تظهر في أية أطروحة، وبعدها أيضا تذكر عادة النساء القديسات، ثم يحدث توقف ما، وقد يبدو أن دور المرأة في الصوفية يقتصر على عدد قليل من الشخصيات، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الصحة، فالتجربة الصوفية الأنثوية عميقة، لكنها تنتقل ليس بشكل ظاهر وصريح كالتجربة الذكورية، وبالتالي فهي بحاجة إلى جمعها شيئًا فشيئًا، وبالرجوع إلى المصادر المتاحة المختلفة. وسيكون من أهم الأبحاث، في رأينا، في هذه المسألة، أبحاث "نساء الصوفية" لـ ك. هيلمينسكي[1]، و"النساء الصوفيات" لـ جواد نوربخش[2] عام1983، بالإضافة إلى التعليقات الموجودة في أقدم رسالة فارسية حول الصوفية للهجويري «كشف المحجوب»، وفي «تذكرة الأولياء» للعطار، وكذلك في المقالات والدراسات الحديثة، وعلى وجه الخصوص، في أعمال م. دكيك[3] ول. سيلفرز[4]، وفي الآونة الأخيرة، تم كتابة المزيد والمزيد من الأعمال من قبل النساء الصوفيات أنفسهن، واصفات تجربتهن الروحية الشخصية، ومن بين هذه الأعمال، أود أن أحيط علما بالكتاب الذي كتبه إ. تويدي[5]، عام 2005

1 - كاميليا آدمز هيلمينسكي (Camille Adams Helminski): مؤلفة وباحثة وممارسة تنتمي إلى الطريقة المولوية الصوفية، وهي من مواليد 16 أكتوبر 1951، في ولاية فلوريدا الأمريكية. اشتركت مع زوجها كبير إدموند هيلمينسكي في تأسيس وإدارة "جمعية العتبة" (Threshold Society)، وهي مؤسسة تعليمية لا تبغي الربح تقدم ندوات وتدريبات في الصوفية، ولكاميليا هيلمينسكي العديد من الكتب المؤلفة والمحققة من بينها "نساء الصوفية: كنز مخفي" (Women of Sufism: A Hidden Treasure) المنشور عام 2003

2 - جواد نوربخش (1926 - 2008)، هو شيخ صوفي مولود في مدينة كرمان في إيران، وفي وقت لاحق رئيس، أو قطب، لطريقة «نعمة الله» بين عامي 1953 و2008، كما أنه شاعر ومفكر صوفي بارز، ومؤلف لأكثر من ثلاثين كتابا عن الصوفية، والكتاب المذكور أعلاه عنوانه بالإنكليزية (Sufi Women).

3 - ماريا ماسي داكيك (Maria Massi Dakake) مختصة في التاريخ الإسلامي وأستاذة بجامعة جورج ماسون، تتركز أبحاثها بشكل أساسي على التاريخ الفكري الإسلامي والدراسات القرآنية والتقاليد الشيعية والصوفية والتجربة الروحانية والدينية للمرأة، وقد كانت أيضا مشاركة في دراسة القرآن والتفسير الحديث للآيات القرآنية.

4 - لوري سيلفرز (Laury Silvers): هي باحثة وناشطة، وهي مؤلفة ومحررة مشاركة لكتب ومقالات عن الصوفية في الفترة التكوينية، وعن النساء المتدينات والصوفيات، والتأثير الديني للمرأة المسلمة وعلاقتها بالقرآن، وهي تدرّس كورسات في الإسلام في جامعة تورنتو.

5 - إيرينا تويدي (Irina Tweedie): هي صوفية روسية بريطانية ومعلمة نقشبندية - مجددية. ولدت في20 أبريل 1907في روسيا، وتوفيت في 23 أغسطس 1999في لندن في بريطانيا، والكتاب المذكور هو بالإنكليزية (The Chasm of Fire)

«الهوة الناريّة: تجربة تحرير المرأة باستخدام تعاليم معلم صوفي" وسيرة ك. حمزة[6]، التي شكلت أساس مقال "امرأة وصوفيوها"[7] لـ ف. ملطي دوغلاس عام 1995، وكذلك كتابها "أدوية الروح"[8] عام 2001.

-المرأة والصوفية: تاريخ المسألة

عند دخوله طريق الصوفية، يتغلب الشخص على جسده، فالتغييرات الروحية مستحيلة بدون تغييرات جسدية، وهذا يتطلب ممارسة الزهد والسعي للاكتمال الروحي والنفسي، ويُعتقد على نطاق واسع بين الصوفيين أن أي امرأة تشرع في طريق الحب الإلهي لا تُعتبر "امرأة"، ولا يتم الحكم عليها فقط وفقًا لطبيعتها الجسدية، وهذه الكلمات يوردها، على وجه الخصوص، العطار في "تذكرة الأولياء" وجواد نوربخش (رئيس طريقة "نعمة الله"، إحدى كبريات الطرائق الصوفية في عصرنا، من عام 1953 إلى عام 2008) وغيرهما. وفي رأينا، هذا البيان، المصمم للتأكيد على الظروف المتساوية للنمو الروحي لكل من الرجال والنساء، على العكس من ذلك، يؤكد على الفارق بين الجنسين، ويبدو الأمر كما لو أن المرأة يجب أن تتخلى ليس فقط عن جسدها كمصدر للشر، ولكن قبل ذلك يجب عليها أن تصبح "رجلاً" أولا، وبذلك تتخلى عن جوهرها البيولوجي والنفسي، وهكذا يتم بالنسبة للنساء إطالة المسار مرحلة إضافية، ومع ذلك، فالصفات غير العقلانية التي تنسب إلى النساء على وجه التحديد هي التي مكنت المرأة من الإسهام في تشكيل النظرة الصوفية للعالم، ومن بين أشياء الأخرى، تجدر الإشارة إلى الحب السراني، الذي يرتبط بقوة برابعة، أحد أوائل الصوفيين الذين تحدثوا عن العرفان الصوفي بلغة الحب.

لن ننظر بالتفصيل في مسار حياة رابعة، بل نؤكد فقط على الخصوصية الروحية لخبراتها الصوفية، وكما هو معلوم، فرابعة اتبعت نمط الحياة المنعزلة لدرويش بسيط، قائلة إن الله العظيم يقدر المرأة التي تصلي دوما كما يقدر الرجل، ورابعة، رغم كونها امرأة على المستوى الجسدي، إلا أنها كانت "رجلاً" على المستوى الروحي، وعندما سُئلت ذات مرة: "رابعة، يعطي الله المعرفة والهبة النبوية للرجال، وليس للنساء، ولن تكوني قادرة أبدا على تحقيق درجة عالية من القداسة كامرأة، فما فائدة كل ما تبذلينه من جهود؟ أجابت:

6- المقصودة هنا الإعلامية المصرية كريمان حمزة:
https: //books.google.com/books?hl=ar&id=-TXxAAAAMAAJ&focus=searchwithinvolume&q=Hamza

7- Fedwa Malti-Douglas, A Woman and Her Sûfîs, Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1995

8 - فدوى مالطي دوغلاس (Fedwa Malti-Douglas): أستاذة (بروفيسورة) وكاتبة لبنانية أمريكية من مواليد عام 1946، وهي حاليًا أستاذة فخرية بجامعة إنديانا بلومنجتون، وقد حصلت على «وسام العلوم الإنسانية الوطني» (National Humanities Medal) في عام 2015، والكتاب المقصود بالحديث أعلاه هو «في أدوية الروح: الأجسام النسائية والجغرافيا المقدسة في الإسلام عبر الوطني" (In Medicines of the Soul: Female Bodies and Sacred Geographies in a Transnational Islam)وهو من أعمالها لعام 2001

"ما تقولونه صحيح، لكن قولوا لي إن كانت هناك امرأة في العالم تخيلت نفسها إلها وقالت: "أنا الحقيقة"، أضف إلى ذلك، لا يوجد خصي بين النساء، لكنهم كلهم من الرجال"[9].

علاوة على ذلك، إذا كانت المرأة تتحكم بأفكارها ومشاعرها، فيمكنها أن تترك الرجل وراءها وتنجح في تجربة مقدسة، وهذا ما يمكننا ملاحظته من مثال رابعة وحسن البصري.

كان حسن البصري من أكثر القديسين مثالية في عصره، وظل مثاليا للأجيال القادمة من الصوفيين، لكنه لم يستطع التخلي عن هذا العالم تماما والتركيز بشكل كامل على الله، ووفقًا لإحدى الروايات، جاءت رابعة ذات مرة إليه ووجدته يبكي بمرارة بسبب الانفصال عن الله، فوبخته قائلة: "امتنع عن إظهار مثل هذه المشاعر، لأن حبه [أي حب الله] يمكن أن يملأ داخلك لدرجة أن قلبك سوف يغرق في هذا الحب، ومن المحتمل أنك لن تكون قادرا على العثور على مكان وجوده"[10].

إن التجربة الروحية لرابعة وحياتها تظهر بوضوح مكانة ودور التصوف النسائي في النظرة الصوفية إلى العالم، والذي قد يكون تم تعريفه على أنه أقل من تجربة الذكور الصوفية، ورغم السلطان الذي لا جدال فيها والتبجيل اللذين تحظى بهما رابعة بين النساء والرجال من الصوفيين، فمن غير الممكن أن نقول بشكل لا لبس فيه أن المسار الروحي للصوفي لا يرتبط بالانتماء الجنسي، فتجربة النساء ينظر إليها بطريقة أو بأخرى من خلال تجربة الرجال الصوفية، وإذا عرضنا بشكل نموذجي النموذج المثالي للمرأة الصوفية، فستكون حياة رابعة وإنجازها الروحي، بالطبع، نموذجا: فقد بلغت الأَمة القادمة من أدنى طبقة اجتماعية ارتفاعات روحية غير مسبوقة، وحتى الرجال الصوفيون الأكثر شهرة في وقتهم لجؤوا إليها للحصول على المشورة. لكن مع ذلك، ففي الملاحظات على السيرة الذاتية لرابعة نفسها، نجد في كثير من الأحيان إشارات إلى التجربة الروحية لصوفيين بارزين رجال، وكأنهم بوجودهم الدائم في محور السرد، يثبتون "شرعية" معجزات وأقوال رابعة؛ وإضافة إلى رابعة الأسطورية، في تاريخ الصوفية يمكن أن نجد الكثير من النساء الصالحات البارزات، وقد قسمناهن بشكل شرطي إلى عدة مجموعات.

9 - فريد العطار، تذكرة الأولياء، سامبو للنشر(САМПО)، موسكو، 2005

10 - المرجع السابق

من الممكن تمييز الزاهدات اللائي قضين أياما وليال في الصيام والصلوات (وسندرج أيضًا البكّاءات المحترفات بين هؤلاء النساء)، ومن بينهن أم طلق[11]، المصلية بلا انقطاع، وشعوانة[12]، التي بلغت مستويات رفيعة من العلو السراني واختبرت اتحادا حميما خاصا مع الله، والتقية التي تخشى الله أم هارون[13]، والكثيرات غيرهن، وعن تجاربهن تقول لوري سيلفرز: «البكاء الديني، وكذلك الصيام المستمر والصلوات المطولة بدا وكأنها تحرر المرأة من الأدوار الجندرية المحددة لها، وتمنحها تأثيرا دينيا»[14]، والافتراض بأن مثل هذه الممارسة الزهدية كانت تحرم المرأة من فرصة الزواج والأمومة لا يخلو من معنى، فهناك حالات معروفة كانت فيها النساء الصوفيات ذوات المظهر الجميل يرهقن أنفسهن بشكل خاص إلى حد الإعياء كي لا تتركن حتى أدنى فرصة للإغواء الجسدي، علاوة على ذلك، يمكن للمرء حتى افتراض أن مثل هذا التعذيب الذاتي كان نوعا من الاحتجاج على الدور الاجتماعي المفروض على النساء، فمثل هذا الموقف الصارم تجاه جسدها يمكن أن يعكس رغبة عميقة لدى المرأة في التخلي عن طبيعتها الأنثوية من أجل المضي قدما على طريق العرفان، مثيرة في الوقت عينه حتى إعجاب الرجال بإنجازاتها.

بين النساء الصوفيات، كان هناك العديد من النساء المتزوجات اللاتي جمعن بين مسؤولياتهن العائلية وبين الممارسة الصوفية. إحدى أشهر هؤلاء النساء فاطمة[15]، زوجة أبي حامد أحمد ابن خضرويه البلخي، ابنة أمير البلخ، والمرأة الصالحة أم اليمن[16]، زوجة أبو علي الروذباري، التي استُغرقت في الله تماما، ومثل رابعة العدوية، قالت أن العلي هو الوحيد الذي يستحق حبنا وكامل تركيزنا عليه، وإلى أم اليمن تُنسب الكلمات التالية (مخاطبة الله): "إذا عدت إليك أخيرا، ألا يمكنني السعي بلا كلل من أجل الوصال[17] معك؟

---

11 - أم طلق هي من العابدات المجتهدات العارفات، عاشت في البصرة في القرن الثاني الهجري، كما يقال عنها في طبقات الصوفية للسلمي، ويروى أنها كانت تصلي لله تعالى في كل يوم وليلة أربعمائة ركعة.
- مناهج وآراء المتصوفات في البصرة خلال القرن الثاني الهجري، مجلة أبحاث ميسان، المجلد الحادي عشر، العدد الثاني والعشرون، السنة 2015، العراق، ص 8

12 - شعوانة هي عابدة زاهدة بكاءة، كانت تبكي في الليل والنهار حتى خافوا عليها من العمى من كثرة بكائها، فكلموها في ذلك، فقالت: أعمى والله في الدنيا من البكاء، أحب إلي من أن أعمى في الآخرة من النار، وقد توفيت عام 175 هـ.
- نساء عابدات زاهدات، موقع مداد، 08\11\2007:
http://midad.com/article/203940/ نساء-عابدات-زاهدات

13 - أم هارون عابدة زاهدة متقشفة، تتلمذ على يديها الكثيرون، ومنهم الزاهد الكبير أبو سليمان الديراني، كانت تأكل الخبز وحده، وتأتي بيت المقدس من دمشق على قدميها مرة في الشهر.
- المرجع السابق.

14 - لوري سيلفرز، الورع المبكر... النساء الصوفيات الباطنيات، Ridgeon L. (ed)، دليل كامبريدج إلى الصوفية، مطبعة جامعة كامبريدج، 2015.

15 - هي المتصوفة الشهيرة فاطمة النيسابورية بنت أمير البلخ، وقد ولدت في خراسان وتوفيت سنة 223هـ بمكة، وكانت من كبار المتعبدات العارفات في زمانها.

16 - هي العارفة الجليلة فاطمة أم اليمن زوجة أبو علي الروذباري (المتوفى في مصر 322هـ)..

17 - الكلمة التي وردت هنا في النص الروسي هي "соитие" "soitiye"، وهي تعني «الجماع».

فكيف لا أحبك إذا لم أر أي خير منذ الأزل إلا منك، وكيف لا أظمأ إليك إذا كنت أنت من ينزل ظمئي إليك؟[18].

يتم وضع المرأة الزوجة، وخاصةً الأم، في إطار اجتماعي صارم، لا يشمل فقط المعايير الأخلاقية، ولكن أيضا العديد من المسؤوليات العائلية، وكما نوهنا من قبل، فإن تركيز حياة المرأة المسلمة ينصب على الأسرة والأطفال، وبالتالي فواجبات من هذا النوع تشغل كامل وقت المرأة الصوفية المتزوجة تقريبا، ولذا نجد في كثير من الأحيان وصفا لصلوات الليل بين النساء. لقد كانت النساء الصوفيات منشغلات بالأعمال النهارية، ولذا كنّ يكرسن الليالي لمحبوبهن [أي الله] وموضوع تعلقهنّ الحقيقي، وتجدر الإشارة إلى أن صلوات الليل لها نعمة خاصة، وهي نوع من علامات اختيار الشخص وقربه من الله، وليس من قبيل الصدفة أن يقول أحد الأحاديث: "الكذاب هو الذي يدعي أنه يحبني، وعندما يأتي الليل، ينام وينساني"[19]، ومثل هذه العزلة الصوفية، التي يتم فيها الاتحاد بين روح الصوفي والجوهر الإلهي، يمكن مقارنتها بحفل الزواج، فتصبح المرأة الصوفية عروسا إلهية؛ لأن "القديسين هم عرائس الله، لكن المقربين فقط (المحارم) يمكنهم رؤية العرائس"[20]، وهكذا، فالنساء الصوفيات، اللاتي يقمن بالعمل النهاري الفذ في الحياة العائلية، في الليل يُمنحن الخلوة مع الزوج والمحبوب الحقيقي [أي الله].

-الأسرة والعرفان والتقشف في التجربة الروحية والحياة الاجتماعية للمرأة الصوفية

خَلقت النساء الصوفيات، بخلاف الرجال، صورتهن الخاصة للحبيب، كما تلاحظ ماريا داكيك، "إن الحبيب قوي ولطيف على حد سواء، يغار بحماسة ويقترب بشكل لا يقاوم، وهو ما يعبر عنه مجازيا في الموضوع (object) الذكري للشوق الأنثوي[21]. في التجربة الأنثوية الصوفية، يتمتع الحبيب بكل الميزات الذكورية، ما يحيلنا إلى الفهم الإسلامي العام لمكان ودور المرأة، حيث ترتبط حياة المرأة المسلمة بطريقة أو بأخرى، وتعتمد في بعض الأحيان بشكل كامل على الرجل، سواء كان أبا أو زوجا أو قريبا آخر. هذا النموذج من العلاقات الاجتماعية لا يمكن إلا أن ينعكس في التجربة الصوفية، فيتم توجيه جميع تطلعات المرأة الصوفية، وكل شوقها وسعيها إلى الحبيب الإلهي، الذي يكون رجلها في الحياة الأرضية إسقاطا دنيويا له، وحتى إذا رفضت المرأة الفهم التقليدي لطبيعتها الأنثوية، ومضت في طريق الزهد والتصوف، فإن وضع حياتها يمضي في هذه الحال "بشكل معاكس"، فالمرأة الصوفية لا تتبع أسلوب حياة غير عادي

18 - جواد نوربخش، النساء الصوفيات، نشر Khanaka Nimatullahi، نيويورك، 1983

19 - أ.شيميل، الأيروس –السماوي والقليل السماوية- في الأدب والحياة الصوفيين، «الصوفي، 2012-2011. العدد 13».

20 - المرجع السابق.

21 - ماريا داكيك، نزيل القلب الأعمق: مفاهيم المحبوب الإلهي بين النساء الصوفيات الأوائل، الدراسات الإسلامية المقارنة. 2007. № 3.1

وحسب، بل إنها تبتعد عن المعايير الإسلامية الراسخة، والتي يتبعها بالضرورة إنشاء الأسرة وإنجاب الأطفال.

إن علاقة النساء الصوفيات بالعائلة تؤدي إلى أفكار متضاربة، فكمسلمات -من ناحية- تتبع بعضهن إرشادات القرآن والسنة التي تقول أن تكوين أسرة واجب هام على كل مسلم، وعلاوة على ذلك، فهن يتمكّن من الجمع بين شؤون الأسرة وتربية الأطفال والممارسة الروحية، لكن من ناحية أخرى، اتخذت النساء الصوفيات اللائي رفضن الزواج أو الإنجاب موقفا نسكيا حديا، ويبدو أن مثل هذا الرفض كان نوعا من الأدلة الخاصة لهاته النساء أنفسهن ولمن يحيط بهن على استثنائيتهن واختلافهن عن الأخريات، كما لو أنهن كنّ يبحثن عن وسيلة إضافية لإثبات أنهن يستحقن طريق الصوفية، ونظرا للاعتقاد بأن الأسرة هي واحدة من أقوى الروابط في هذا العالم، لأنها تربط الإنسان بأقربائه، وتجعله يهتم ويعتني بهم، فغالبا ما كانت النساء الصوفيات يحاولن التخلص من هذا "الحاجز" حتى لا يستطيع أي شيء إبعادهن عن التركيز على الله.

إن التركيز على الحياة في المستقبل، إلى جانب البحث عن طريقة للوحدة مع الله، كثيرا ما كان يدفع النساء الصوفيات إلى فقدان الصواب، وكان الجنون في النظرة الصوفية إلى العالم أحد أشكال الكمال الروحي؛ لأن فقدان المرء لذاتيته يفك الإنسان من أسر هذا العالم، وبالتالي يؤدي إلى الله، ومن الأمثلة على ذلك بيبياك المروية[22] وبيبتشي الحلواتي[23]، ووفقا لملاحظات الشيخ أبو سعيد عبد الخير، أنه ذات مرة جاءت إليه بيبيك واشتكت من أنه بينما يصلي جميع الناس من أجل الخلاص من الـ "أنا" الخاصة بهم، فقد كانت هي تصلي لله منذ ثلاثين عاما حتى يعيد الـ "أنا" إليها ولو للحظة واحدة، لكي تتمكن من فهم ما إذا كانت هي نفسها موجودة أم لا. هذه الطريقة للخروج من العالم لا يمكن اعتبارها "نسائية" بحتة، ولكنها مع ذلك تدل على التجربة الصوفية النسائية ككل.

غالبا ما تتم رؤية علاقة المرأة الصوفية بالله في صورة العلاقة بين الزوج والزوجة، فقد جسدت النساء الصوفيات في فكرة المحبوب الإلهي فكرة الزوج المثالي الذي يحمي المرأة دائما ولا يتركها بمفردها، وفي الوقت نفسه، فالصورة الإلهية "للرجل" المثالي لا تشبه الزوج فحسب، بل الوالد أيضا، فعلى سبيل المثال، في إحدى القصص عن رابعة، ذُكر أنّ أحد الأشخاص طلب منها الزواج منه، وقد أجابت رابعة: "الوحيد الذي يستطيع الزواج، هو من ينتمي إلى نفسه وتكون حياته خاضعة له، لكنني لست مالكة جسدي وحياتي، إنهما ينتميان إلى الله، فاسأله عن يدي"[24]، وبشكل جد مبسط، يمكن مقارنة هذه العلاقات بما يسمى عادة عقدة إلكترا في علم النفس، ولن نخوض في التفاصيل، فسنشير فقط إلى أن هذه الظاهرة النفسية تستند إلى

22 - (Bibiak from Merv): عن هذه المتصوفة يرد الحديث في كتاب "نفحات الأنس من حضرات القدس" للملا نور الدين عبد الرحمن الجامي.

23 - ناسكة فارسية يقع مدفنها بالقرب من سورهاب في تبريز في إيران.

24 - -فريد العطار، المرجع السابق.

مثالية الأب، وغالبا ما يكون الوجه الآخر لها انتهاكا لمفهوم الجسد الخاص وللطبيعة الأنثوية ككل، وهذا ما يمكننا ملاحظته عند النساء الصوفيات. تفترض صورة الزوج وجود الجاذبية الحسية التي بالنسبة إلى الله هي عنصر غريب إلى حد كبير، على الرغم من كون مفهوم العشق شائعا في الصوفية. في رأينا، يجب اعتبار العشق عامل جذب مفرط، بحثا دائما، حيث يكون المكون الحسي هو عدم الرضا والرغبة في التواصل مع الله على المستوى الروحي مع ذلك، ولكن ليس الجسدي، (على الرغم من أن النص الجنسي مابين السطوري موجود أيضا، ولكن بالأحرى بشكل رمزي وكتعبير مجازي). أما فيما يتعلق بوالدها، فإن المرأة تعاني من الخوف، والرهبة من عقابه، وتتوقع مكافآت عن أفعالها الصحيحة، كما تجد عنده الحماية والدعم في جميع مواقف الحياة، وعلاوة على ذلك، يعدّ الأب نموذجا أساسيا لسلوك الرجال، وتجعله الفتاة المثال الذي تقوم عليه ببناء علاقتها الأولى مع عالم الرجال، متعرفة خلال ذلك على طبيعتها الأنثوية.

إن العلاقات بين الزوج والزوجة، بغض النظر عن خصائص المجتمع الإسلامي، تفترض على أية حال القيام "على أرضية المساواة"، على الأقل بالقدر الذي يعتبر فيه الزوج والزوجة بالغين ليتخذا، كقاعدة عامة، قرارات مشتركة، (فحتى وإن كان الزوج يعتبر رب الأسرة، فإن للزوجة أيضا الحق في الرأي، على الأقل في مجال المشكلات المنزلية). أما إذا نظرنا إلى العلاقة بين الأب وابنته، فإننا نرى تسلسلا هرميا صريحا، بصرف النظر عن مدى قربهما، وبالإضافة إلى ذلك، تؤكد صورة الحبيب كأب، وليس كزوج، أن حبيب المرأة الصوفية دائما ما يكون قريبا منها ويكون "متوفرا" دائما لها، وعلى عكس الزوج المشغول دائما في العمل، والتدريب، والحياة الاجتماعية النشطة، وربما الزوجات الأخريات، ومن ثم، فإن فكرة الأب المحبوب كرجل قريب دائما من المرأة ودائما متفرغ لها ليست بلا معنى. إن فكرة أن المرأة (الزوجة) تنتمي إلى الرجل تم ترسيخها بقوة في الوعي العام (ليس فقط في البيئة الإسلامية)، وبنيت عليها جميع العلاقات تقريبا، بما في ذلك مفاهيم مثل شرف النساء والإخلاص وما إلى ذلك، وفي الوقت عينه، وعلى الرغم من أن الخيانة الزوجية محظورة على كل من النساء والرجال، إذا أخذنا في الاعتبار المعايير الدينية والأخلاقية، فغالبا ما يُغض النظر عن خيانة الأزواج، ويعزى ذلك إلى طبيعة الذكر التعددية الزوجات [polygamous]، بالإضافة إلى ذلك، في معظم البلدان الإسلامية تعدد الزوجات معمول به، ما يجعل فعليا الحديث عن "انتماء" الرجل لامرأة واحدة أمرا غير مجْدٍ (مع تحفظنا على ذلك بأن الزوجة يمكنها أن تمنع زوجها نظريا من أخذ المزيد من الزوجات، وبالتالي تحافظ على حصرية حقوقها).

وهكذا، تصبح واضحة محاولة النساء الصوفيات الوصول إلى أقصى درجة ممكنة من التقرب من الله، وجعله "خاصتهن"، ولهذا السبب في التجربة الصوفية الأنثوية، يسود مفهوم الأنس؛ أي القرب الخاص من لله، ووفقا للهجويري "الأنس" و"الهيبة" (الخشية) هما حالتا الدرويش الذي يسعى إلى الله[25]. علاوة على

25 - الهجويري، كشف المحجوب لأرباب القلوب، دار يدينستڤا، موسكو، 2004

ذلك، "عندما يكشف الرب عن مجده للقلب الإنساني في سيادة (الجلال)، يرتعش الدراويش من (الهيبة)، وعندما يسود (الجمال)، يختبر الدراويش (الأنس)"[26]، ويشير الغزالي إلى أن "الشخص الذي انغمر في حالة "القرب"، لا يعود يريد شيئا سوى الوحدة والعزلة... لأنه يطلب الانفصال عن كل شيء ليس هو الله"[27].

-النساء الصوفيات في الوقت الراهن

عند تحليل تجربة النساء الصوفيات الحديثات (وبمصطلح "الحديث" نعني التجربة الصوفية للنساء في القرنين العشرين والحادي والعشرين)، يمكننا أن نلاحظ أن طريقهن الروحي يشمل العديد من ميزات أسلافهن، وهذا واضح بشكل خاص في موضوع الحب الإلهي، فدراسة تجربة إيرينا تويدي[28] [Irina Tweedie]، تلميذة المعلم الهندي وإحدى أوائل النساء الأوروبيات اللواتي انضممن إلى التقاليد الصوفية، والتي نقلت تجربتها بعد ذلك إلى أمريكا، أو قصة كريمان حمزة، التي تنتمي أسرتها إلى نخبة مجتمع القاهرة، والتي حدث تنوّرها الروحي في سنوات صعبة من الصحوة الإسلامية، توضح لنا أن موضوع الحب لا يلعب فقط دورا خاصا في علاقة التلميذات مع مرشديهن، ولكنه يُفهم عموما على أنه وسيلة لإدراك ومعرفة الذات والعالم المحيط، وهذه العلاقات يمكن تعريفها على أنها تعبير مجازي عن العلاقة بين المحب والمحبوب، عندما يتم نقل الصفات الإلهية إلى شخص المعلم، وتلميذه (أو في هذه الحالة، نحن مضطرون مرة أخرى للعودة إلى الدقة الجندرية والقول "تلميذته") هو المحب المتشوق، ومثل هذا النقل النفسي للعلامات من كائن إلى آخر هو سمة عامة في النظرة الصوفية إلى العالم، إلا أنه يظهر بشكل أكثر وضوحا كما رأينا في موضوع الحب والاتحاد مع الموضوع المشتهى.

تجمع التجربة الصوفية النسائية بين النموذج الأصلي للأب (أو المرشد، حيث يكون المرشد هو الأب الروحي بطريقة ما) ونموذج الزوج (أو موضوع الحب الآخر)، ما يخلق صورة معقدة ومتناقضة للحبيب، ومع الرغبة في القربي من موضوع حبهن، تستخدم النساء الصوفيات وسائل الاتصال التي تتميز بها كل من الابنة (الطاعة، والالتزام بالمبادئ، ومراعاة التبعية الاجتماعية، وما إلى ذلك، والتي يمكننا ملاحظتها على مثال كريمان)، والزوجة أو المحبوبة، و(هنا يأتي الحب أولا في صورة جاذبية ذات صبغة جنسية؛ ومرة أخرى، على مثال كريمان، التي تعترف بأن صوت الشيخ وكلماته يتردد صداها في جسدها). هذه الأساليب

26 - المرجع السابق.

27 - ماريا داكيك، المرجع السابق.

28 - إيرينا تويدي 1907-1999 ((Irina Tweedie)، متصوفة روسية الأصل، اسمها الأصلي هو إيرينا تمارا كاربوفا، "وتودي" هي عائلة زوجها الإنكليزي الثاني، أمضت حياتها المبكرة في النمسا وسويسرا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا بعد أن فرت عائلتها بعد الثورة الروسية. درست في فيينا وباريس، وقد التقت في عام 1961 في الهند بمعلمها الهندي الصوفي من الطريقة النقشبندية المجددية (Naqshbandiyya-Mujaddiddiya) رادها موهان لال (Radha Mohan Lal)، وأصبحت فيما بعد واحدة من أوائل النساء الغربيات المتدربات في النظام النقشبندي، ثم صارت معلمة للطريقة النقشبندية المجددية.

التي تبدو مختلفة يمكن الجمع بينها بكلمة واحدة: الدلال [coquetry]، وعلى الرغم من بعض الدلالات العابثة، فإن الدلال بحد ذاته هو مجرد رغبة في الإعجاب [أن تُعجِب]، وهذا هو بالضبط ما تسعى المرأة الصوفية إلى فعله فيما يتعلق بالجوهر الإلهي. تروي ماريا داكيك قصة عن قديسة غير معروفة كانت تبكي بصوت مرتفع عند باب الكعبة، وعندما اقترب منها رجل وسألها عما حدث، قالت أنها فقدت قلبها، فوجه لها الرجل ملاحظة بأن جمال صوتها يلهي المصلين، وعندها سألته القديسة: ما هو هذا البيت؟ أجاب الرجل بأنه بيت الله، فردت القديسة: إذا دعونا وشأننا، فإننا نتدلل عليه لأننا نريده أن يزورنا"[29]

بالجدال وعدم الطاعة كانت كاريمان حمزة، وكذلك إيرينا تويدي، تجذبان إليهما انتباه المرشدين، فـ "تدلل" هاتين المرأتين، وكذلك متصوفات العصور الوسطى، يتجلى فيه نوع خاص من التمرد يحاولن فيه الجمع بين مبدئهن الأنثوي والطريق السراني، وعندها تحدث المواجهة بين المبادئ الجسدية والروحية وينشأ انفصام يصعب التغلب عليه، إذ يجب على المرأة الصوفية أن تتوقف عن أن تكون امرأة بالمعنى الجنساني [gender sense]، ولكنها في نفس الوقت تظل صوفية. هذا المخطط يمكننا تعريفه على أنه ثالوث (أطروحة - نقيض - تركيب)، حيث تصبح المرأة امرأة صوفية، وبعد ذلك، تتغلب على الإطار الجنساني، وتصبح مجرد صوفية، ولكنها في ذلك تأخذ مبدأها الأنثوي، وعند الفحص عن كثب، نجد أن جميع النساء الصوفيات تقريبا يمرّنّ في هذه المرحلة: إنكار فكرة الأنوثة ذاتها، والقضاء، بدرجة أو بأخرى، على جميع الصفات الملازمة للمرأة من خلال التقشف أو العزلة أو الأشكال الأخرى، وفي النهاية قبول طبيعتهن الأصلية التي رسمتها العناية الإلهية مجددا؛ وبفضل هذا القبول، يتم الانتقال إلى مستوى روحي جديد، أو "حال" (المفهوم الباطني للمستوى الروحي في الإسلام).

تجدر الإشارة إلى أن التجربة الصوفية للمرأة الصوفية الحديثة (في القرن الحادي والعشرين) تأخذ كأساس لسلوكها سلوكَ أسلافها، ولكنها تخضعهن لانكسار عبر موشور الحقائق الحديثة، فالمعلمات والتلميذات الصوفيات الحديثات لسن من الناسكات أو الزاهدات بالمعنى التقليدي لهذه المفاهيم، وعلاوة على ذلك، فإن معظمهن يدخلن جمعيات أو اتحادات صوفية حديثة، ويؤسسن منظمات ويجمعن الأشخاص المشابهين في التفكير حولهن. في الوقت الحاضر، تعتبر التجربة الصوفية الفردية نادرة، وبدلاً من ذلك، فهي تدخل في نموذج هذا المجتمع الصوفي أو ذاك وتتبع قواعده، كما وتجدر الإشارة أيضًا إلى أن النساء الصوفيات الحديثات، باستخدام تجربة أسلافهن، قد انتقلن على الفور إلى مرحلة "التركيب"، في حين أن مرحلة الرفض لطبيعتهن الأنثوية قد مرت بالفعل وقد حان الوقت "لقبول هذه الطبيعة" والتصرف وفقا لهذا الموقف، وفي الوضع الراهن، تعد المنظمة النسائية الصوفية (Sufi women organization, SWO) واحدة من أكبر وأشهر المجتمعات النسائية الصوفية ذات الدلالة.

29 - المرجع السابق.

تأسست المنظمة النسائية الصوفية على يد الدكتورة ن. عنقا[30] في عام 1993م، ويتم تمويلها من قبل النساء الصوفيات من جميع أنحاء العالم، وهي تقع تحت رعاية الرابطة الدولية للصوفية. في ديباجة المنظمة يقال إن هذه الجمعية ليست سياسية أو دينية بطبيعتها، وهدفها ومهمتها الرئيسان هما نشر المعرفة الصوفية، وكذلك "الحفاظ على حكمة وخبرة وأهمية التراث النسوي الصوفي في الماضي والحاضر"[31]. نظّمت النساء الصوفيات هذا الجمعية كفضاء لتبادل المعرفة والخبرة، وكذلك للبحث الروحي والمعرفة الأعمق بجوهرهن والعالم المحيط بهن. تولي المنظمة الصوفية النسائية اهتماما خاصا للجانب الأخلاقي، كوسيلة ليس فقط للتفاعلات الداخلية، ولكن أيضا الخارجية، وبشكل خاص، مع المنظمات الأخرى للحفاظ على علاقات مثمرة، والنقطة الأكثر أهمية في دستور المنظمة الأخلاقي، في رأينا، هي ما يلي: "لجميع الناس، بغض النظر عن الجنس أو العرق أو العمر أو الوضع الاجتماعي والاقتصادي، الحق في التنمية الذاتية والتقدم على طول الطريق الروحي، وإذا تلقوا المعرفة الروحية، فلهم الحق في القيادة وفي أن يكونوا مرشدين روحيين"[32].

وكما هو باد، فالمنظمة الصوفية النسائية، هي ذات طبيعة اجتماعية ثقافية (بالمعنى الواسع للكلمة) أكثر من كونها دينية، وترتبط العديد من نقاط ديباجتها ودستورها الأخلاقي بالقضايا الاجتماعية، مثل العلاقات الأسرية، والمساواة في الحقوق بين المرأة والرجل، وحقوق الطفل، وما إلى ذلك، ما يجعل هذه المنظمة، بالمعنى الدقيق للكلمة، منظمة اجتماعية ودفاعية عن الحقوق الإنسانية أكثر منها صوفية، وقد جمعت هذه المنظمة مجموعة كاملة من المهام التي تهدف إلى حل مسألة مكانة المرأة ودورها في المجتمع، فوسعت بذلك نطاق أنشطتها، في الوقت الذي تشدد فيه ديباجتها على أن المنظمة ليست دينية، ما يجعل مفهوم "الصوفية" يصل إلى المستوى الثقافي العام، دون ربطه بالإسلام والنماذج السياقية التي اعتدنا عليها.

30 - الدكتورة ناهد عنقا (Nahid Angha) هي باحثة صوفية ومؤلفة ومحاضرة وناشطة في مجال حقوق الإنسان، ولدت عام 1945، وهي ابنة المعلم الصوفي الفارسي من القرن العشرين مولانا شاه مقصود المتوفى 1980

31 - الرابطة الصوفية الدولية، دستور المنظمة الصوفية النسائية الأخلاقي:
https://ias.org/swo/swo-code-of-ethics/

32 - المرجع السابق.

-الخاتمة

في الوقت الحاضر، شهدت الصوفية، على الأقل جانبها "النسائي"، تغيرات كبيرة، وأصبحت ظاهرة تاريخية ثقافية، وبالارتباط مع ذلك، تثير الصوفيات النساء أهمية واهتماما خاصين، حيث أنهن لم يغيّرن مفهوم الصوفية في القرن الحادي والعشرين فحسب، ولكنهن حافظن أيضا إلى حد كبير على جوهرها، ذاك الذي تشكلت فيه الصوفية في الأصل. بهذا الجوهر نفهم مفهوم الحب، الذي هو أساس المعرفة الصوفية والسعي إلى الله، وإذا فهمنا الحب كتفاعل بين المحب والمحبوب، أيا كان شكله، فلن نستطيع القيام بذلك دون توضيح الدور المنوط بالجانب "النسائي" من الصوفية، سواء كان ذلك تجربة صوفية نسائية أو كان مفهوم الأنوثة ذاته كعلامة جوهرية للوجود في النظرة الصوفية إلى العالم.

بالتأكيد، إن تحقيق القربي مع الله هو هدف كل صوفي، بغض النظر عن الجنس، ومع ذلك، فإن التجربة النسائية الباطنية لمثل هذا الاتحاد هي أكثر عمقا وحميمية، فالنساء، المحرومات من الحياة النشطة خارج المنزل والأسرة، تقمن برحلة داخلية، وبدون تشتيت اهتمامهن في العالم الخارجي (على الرغم من الأعمال المنزلية، إن وجدت)، يصلن إلى أعماق لا تصدق من العرفان والتركيز على الله، فالدائرة المرسومة بدقة كافية، التي يتموضع داخلها مجال نشاط المرأة، تتيح لها عدم الانحراف عن مركز هذه الدائرة - الحبيب الإلهي، وفي الوقت نفسه، فإن التركيز النهائي على الداخل، وفي كثير من الأحيان النفي التام للعالم الخارجي، يجعلان التجربة النسائية الصوفية تبلغ أقصى الحدود، مبنيّة على "الشعور"، والإبصار المفاجئ والاستنارة، والأدب الصوفي النسائي غالبا ما يكون عفويا، ويغيب عنه أسلوب الضبط المحكم، وليس فيه عمليا أطروحات واسعة النطاق، مما يجعله أكثر حميمية وخصوصية وجاذبية لمزيد من الدراسة.

-مراجع النص الأصلي

(بالروسية والإنجليزية)

1- الهجويري، كشف المحجوب لأرباب القلوب، دار يدينستڤا، موسكو، 2004.
(Russ. ed.: Al-Khudzhviri (2004) Raskrytie skrytogo za zavesoi dlya svedushchikh v tainakh serdets) Kashf al-makhdzhub li arbab al-kulub).Moscow: Edinstvo Publ.).

2- فريد العطار، تذكرة الأولياء، سامبو للنشر(САМПО)، موسكو، 2005
(Russ. ed.: Attar F. (2005) Tazkirat al-auliya, ili Rasskazy o svyatykh. Moscow: SAMPO Publ.).

3- جواد نوربخش، المرأة الصوفية، نشر Khanaka Nimatullahi، نيويورك، 1983
(Russ. ed.: Nurbakhsh Dzh. (1983) Zhenshchiny-sufii. New York: Khanaka Nimatullakhi Publ.).

4- إيرينا تويدي، الهوة النارية: تجربة تحرير امرأة بواسطة تعاليم معلم صوفي، سامبو للنشر(САМПО)، موسكو، 2005
(Russ. ed.: Tvidi I (2005) Ognennaya bezdna: Opyt osvobozhdeniya odnoi zhenshchiny s pomoshch'yu ucheniya sufiiskogo mastera. Moscow: Sampo Publ.).

5- كاميليا هيلمينسكي، النساء والصوفية:
http://www.sufism.ru/sw/txt/wsuism.html

6- أ.شيميل، الأيروس –السماوي والقليل السماوية- في الأدب والحياة الصوفيين، «الصوفي 2011-2012. العدد 13»
(Russ. ed.: Shimmel' A. (20112012-) Eros v sufiiskoi literature i zhizni – bozhestvennyi i ne ochen'. Sufii, 13, pp. 1727-).

7- ماريا داكيك، نزيل القلب الأعمق: مفاهيم المحبوب الإلهي بين النساء الصوفيات الأوائل، الدراسات الإسلامية المقارنة. 2007. № 3.1. ص 72-97
Dakake M. (2007) Guest of the inmost heart: Conceptions of the Divine Beloved among early Sufi women. Comparative Islamic studies, 3.1, pp. 7297-

8- الرابطة الصوفية الدولية، دستور المنظمة الصوفية النسائية الأخلاقي:
https://ias.org/swo/swo-code-of-ethics/

9- فدوى ملطي دوغلاس، امرأة وصوفيوها، واشنطن: مركز الدراسات العربية المعاصرة، جامعة جورج تاون، 1995
Malti-Douglas F. (1995) A woman and her Sufis. Washington: Center for contemporary Arab studies, Georgetown University.

10- فدوى ملطي دوغلاس، أدوية الروح. الأجساد النسائية والجغرافيا المقدسة في الإسلام عبر الوطني. بيركلي، لوس أنجلوس، لندن: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2001
Malti-Douglas F. (2001) Medicines of the soul. Female bodies and sacred geographies in a transnational Islam. Berkeley, Los Angeles, London: University of California press.

11- لوري سيلفرز، "الورع المبكر، النساء الصوفيات الباطنيات"، Ridgeon L. (ed)، دليل كامبريدج إلى الصوفية، مطبعة جامعة كامبريدج، 2015.
Silvers L. (2015) early pious, mystic Sufi women. In: Ridgeon L. (ed) Cambridge companion to Suism. Cambridge University Press, pp. 2452-

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022